وأجلسها بجانبه على السرير : « اسمعى ... أن مثلك لا يجوز أن تعمل كخادمة »

فقالت باخلاص « إنى مسرورة ... وجودى هنا خير مما كنت أنتظر ... والآن اسمح لى أن أذهب وأغير الثوب وأرد هذا »

وأشارت إلى الثوب الذى كساها فقال « خله لك ... وغيره أيضا ... كل مافى الخزانة خذيه »

فقالت « سيدى ... لم أعتد أن آخذ شيئا من أحد »

قال وهو ينهض « أوه ... هذه مسألة يسهل أن نسويها فيما بعد ... »

وكانت هى قد نهضت أيضا فوقفا متقابلين . وقد يكون الأرج المتضوع فى الغرفة أو غيره هو الذى أدار رأسيهما فقد مال عليها فلم تبعد ، ولثم فمها . وكانت القبلة فى أول الأمر خفيفة — لمساً لا أكثر — ولكن الأيدى ارتفعت إلى الأكتاف فكان عناق طويل

وقال جميل بك « نعيمة ... إنك ساحرة ... كان دائما يخطر لى انك لست من الخدم ... ويخيل إلى أنك ستبقين هنا ... سيدة ... »

وكان قلب نعيمة يخفق بشدة فنأت عنه قليلا وهى تفكر فى معنى ما سمعت ثم قالت « ولكن الست ؟

قال « لاتقولى الست كأنك مازلت خادمة »

قالت وهى تضحك « زوجتك إذن ؟ »

قال « آه ... نسيت أن أخبرك أننا اتفقنا — أبوها وأنا — على فض الأشكال بالحسنى ... لامحاكم ولا شىء ... طلقتها اليوم وانتهى الأمر »

قالت : « الست آسفا ؟ »

قال « كلا ... كان هذا أحسن حل ... حياتنا مستحيلة ... لاوفاق »

ولأول مرة منذ سنتين شعرت نعيمة أن لها بيتا ، ونظرت إلى السرير — سريرها الآن ، أو هو سيصبح سريرها بعد العقد ... ثم ردت عينها إلى جميل بك فالتقت الشفاه مرة أخرى فى قبلة معسولة

ابراهيم عبد القادر المازنى

خاتمة الأساة الأندلسية

# الصراع الأخـــير

## بين الموريسكيين واسبانيا

للأستاذ محمد عبد الله عنان

(٢)

سرى إلى الموريسكيين يأس بالغ يذكيه السخط العميق فمولوا على الثورة مؤثرين الموت على ذلك الاستشهاد المعنوى الهائل . ونبتت فكرة الثورة أولا فى غرناطة حيث يقيم أعيان الموريسكيين ، وحيث كانت جمهرة كبيرة تحشد فى ضاحية « البيازين » ؛ وكان زعيم الفكرة ومثير ضرامها موريسكى يدعى فرج بن فرج ؛ وكان ابن فرج صباغاً بمهنته ، ؛ ولكنه حسبما تصفه الرواية القشتالية كان رجلا جريئاً وافر العزم والحماسة ، يضطرب بغضاً للنصارى ، ويتوق إلى الانتقام الذريع منهم ؛ ولا غرو فقد كان ينتسب إلى بنى سراج وهم من أشراف غرناطة وفرسانها الأنجاد أيام الدولة الاسلامية . وكان ابن فرج كثير التردد على أنحاء البشرات ، وثيق الصلة بمواطنيه ؛ فاتفق الزعماء على أن يتولى حشد قوة كبيرة منهم تزحف سراً إلى غرناطة وتجوز إليها من ضاحية البيازين ، ثم تفاجىء حامية الحمراء وتسحقها وتستولى على المدينة ، وحددوا للتنفيذ « يوم الخميس المقدس » من شهر ابريل سنة ١٥٦٨ إذ يشغل النصارى عندئذ باحتفالاتهم وصلواتهم ؛ ولكن أنباء هذا المشروع الخطير تسربت إلى السلطات منذ البداية فاتخذت التحوطات لدرئه ، وعززت حامية غرناطة ، وحاميات الثغور ، واضطر الموريسكيون أزاء هذه الأهبة أن يرجئوا مشروعهم إلى فرصة أخرى

واستمر الموريسكيون على عزمهم واهبتهم ، ووجهوا بعض الكتب خفية إلى أمراء الثغور فى المغرب يطلبون إليهم الغوث والعون ؛ فوقع كتاب منها فى يد حاكم غرناطة ؛ وتقول

الرواية القشتالية أنه كان موجها من أحد زعماء البيازين إلى مسلمى الثغور المغربية يستحلفهم فيه الغوث بحق روابط الدين الدم ويقول: « لقد غمرتنا الهموم ، وأعداؤنا يحيطون بنا إحاطة النار المهلكة . إن مصائبنا لأعظم من أن تحتمل ، ولقد كتبنا إليكم فى ليال تفيض بالعذاب والدمع ، وفى قلوبنا قبس من الأمل ، إذا كانت ثمة بقية من الأمل فى أعماق الروح المعذب» . ولكن الحكومات المغربية كانت مشغولة بمشاكلها الداخلية ، فلم يلب داعى الغوث سوى جماعة من المتطوعين الذين نفذوا سراً إلى إخوانهم فى البشرات ، ومنهم كثيرون من البحارة المجاهدين الذين كانوا حربا عوانا على الثغور والسفن الأسبانية فى ذلك العصر

وفى شهر ديسمبر سنة ١٥٦٨ ، وقع حادث كان نذير الانفجار ؛ إذ اعتدى الموريسكيون على بعض المأمورين والقضاة الأسبانيين فى طريقهم إلى غرناطة ووثبت جماعة منهم فى نفس الوقت بشرذمة من الجند كانت تحمل كمية كبيرة من البنادق وفتكت بهم جميعا . وفى الحال سار ابن فرج على رأس مائتين من أتباعه ونفذ إلى المدينة ليلا ، وحاول تحريض مواطنيه فى البيازين على نصرته ولكنهم أبوا أن يشتركوا فى مثل هذه المغامرة الجنونية وقد كان موقفهم حرجاً فى الواقع لأنهم يعيشون إلى جانب النصارى على مقربة من الحامية وهم أعيان الطائفة ولهم فى غرناطة مصالح عظيمة يخشون عليها من انتقام الأسبان ؛ بيد أنهم كانوا من وراء الثورة يؤيدونها برعايتهم ونصحهم ومالهم فارتد ابن فرج على أعقابه واجتاز شعب جبل شلير ( سييرا نفادا ) ، إلى الهضاب الجنوبية فيما بين بلش ( فيليز ) والمرية ، فلم تمض بضعة أيام حتى عم ضرام الثورة جميع الدساكر والقرى الموريسكية فى أنحاء البشرات ، وهرعت الجموع المسلحة إلى ابن فرج ووثب الموريسكيون بالنصارى القاطنين فيما بينهم ففتكوا بهم ومزقوهم شر ممزق

— ٣ —

اندلع لهيب الثورة فى أنحاء الأندلس ودوت بصيحة الحرب القديمة وأعلن الموريسكيون استقلالهم واستعدوا الخوض معركة الحياة والموت ، وبدأ الزعماء باختيار أمير يلتفون حوله ، ويكون رمز ملكهم القديم فوقع اختيارهم على فتى من أهل البيازين يدعى الدون فرناندو دى فالور ؛ وكان هذا الاسم النصرانى القشتالى يحجب نسبة عربية اسلامية رفيعة ذلك أن فرناندو دى فالور كان ينتمى فى الواقع إلى بنى أمية وكان سليل الملوك والخلفاء الذى سطعت فى ظلهم الدولة الاسلامية فى الأندلس زهاء ثلاثة قرون ، وكان فتى فى العشرين تنوه الدوائر القشتالية المعاصرة بوسامة محياه ، ونبل طلعته ؛ وكان الأمير الجديد يعرف خطر المهمة التى انتدب لها ، ولكنه كان يضطرم حماسة وجرأة وإقداما ، ففى الحال غادر غرناطة سرا إلى الجبال ولجأ إلى شيعته آل فالور فى قرية بزنار ، فهرعت اليه الوفود والجموع من كل ناحية ، واحتفل الموريسكيون بتتويجه فى احتفال بسيط مؤثر ، فرشت فيه على الأرض أعلام اسلامية ذات أهلة فصلى عليها الأمير متجها صوب مكة ، وقبل أحد أتباعه الأرض رمزا بالخضوع والطاعة ، وأقسم الأمير أن يموت فى سبيل دينه وأمته ، وتسمى باسم ملوكى عربى هو محمد بن أمية صاحب الأندلس وغرناطة ، واختار محمد عمه الملقب « بالزغوير » قائدا عاما لجيشه ، وقد كان صاحب الفضل الأكبر فى اختياره للرياسة ، وبعث ابن فرج على رأس بعض قواته إلى هضاب البشرات ليجمع ما استطاع من أموال الكنائس ، واتخذ مقامه فى أعماق الجبال فى مواقع منيعة ، وبعث رسله فى جميع الأنحاء يدعون الموريسكيين إلى خلع طاعة النصارى والعود إلى دينهم القديم

ووقعت نقمة الموريسكيين بادىء ذى بدء على النصارى المقيمين بين ظهرانيهم فى أنحاء البشرات ولا سيما القسس وعمال الحكومة ؛ وكان هؤلاء يقيمون فى محلات متفرقه سادة قساة يعاملون الموريسكيين بمنتهى الصرامة والزراية ، وكان القسس بالأخص أس بلائهم ومصائبهم ؛ ومن ثم فقد كانوا ضحايا الفورة الاولى . وانقض ابن فرج ورجاله على النصارى فى تلك الأنحاء فمزقوهم تمزيقا . وقتلوا القسس وعمال

الحكومة، ومثلوا بهم أشنع تمثيل، وكانت حسبما تقول الروايات، القشتاليه مذبحة عامة لم ينج منها حتى النساء والأطفال والشيوخ؛ وذاعت أنباء المذبحة الهائلة فى غرناطة فوجم لها الموريسيكيون والنصارى معا، وكل يخشى عواقبها الوخيمة، وكان الموريسكيون يخشون أن يبطش النصارى بهم انتقاما لمواطنيهم، وكان النصارى يخشون أن يزحف جيش الموريسكيين على غرناطة فتسقط المدينة فى يدهم وعندئذ يحل بهم النكال الرائع. بيد أن الرواية القشتالية تنصف هنا محمد بن امية فتقول أنه لم يحرض على هذه المذابح ولم يوافق عليها، بل لقد ثار لها وعزل نائبه ابن فرج عن القيادة، فنزل عنها راضياً واندمج فى صفوف المجاهدين، وهنا يختفى ذكره ولا يبدو على مسرح الحوادث بعد

— ٤ —

وكانت غرناطة فى أثناء ذلك ترتجف سخطاً وروعاً؛ وكان حاكمها المركيز منديخار يتخذ الأهبة لقمع الثورة منذ الساعة الأولى، بيد أنه لم يكن يقدر مدى الانفجار الحقيق، فغصت غرناطة بالجند، ووضع الموريسكيون أهل البيازين تحت الرقابة رغم احتجاجهم وتوكيدهم بأنهم لا علاقة لهم بالثائرين من مواطنيهم؛ وخرج منديخار من غرناطة بقواته فى ٢ يناير سنة ١٥٦٩ تاركا حكم المدينة لابنه الكونت تنديلا، وعبر جبل شلير (سيير انفادا) وسار توآ إلى أعماق البشرات حيث يحتشد جيش الثوار؛ وكان محمد ابن أمية متحصناً بقواته فى آكام بوكيرا الوعرة، وكان الموريسكيون رغم نقص مواردهم وسلاحهم قد حذقوا حرب الجبال ومفاجآتها. فما كاد الاسبان يقتربون منهم حتى انقضوا عليهم، ونشبت بين الفريقين معركة عنيفة، ارتد الموريسكون على أثرها إلى سهول باترنا، وتخلف كثيرون منهم ولا سيما النساء، ففتك الأسبان بهم فتكا ذريعا، وحاول منديخار أن يتفاهم مع الثائرين على العفو وأن يخلدوا إلى السكينة، وبعث اليهم بعض المسالمين من مواطنيهم، وكان محمد بن أمية يميل إلى الصلح والتفاهم، ولكن المتطرفين من أنصاره ولا سيما المتطوعين المغاربة رفضوا الصلح، فاستؤنفت المعارك، ورجحت كفة الاسبان وهزم الموريسكيون مرة أخرى، وفر محمد بن أمية وأسرت أمه وزوجه وأخواته؛ وأصيب الاسبان بهزيمة شديدة فى آكام «جواخاريس» ولكن الموريسكيين آثروا الارتداد؛ وقتل الاسبان من تخلف منهم أشنع قتل. وكان ممن تخلف زعيم باسل يدعى «الزمار» أسره الاسبان مع إبنته الصغيرة وأرسلوه إلى غرناطة حيث عذب عذاباً وحشياً إذ نزع لحمه من عظامه حياً، ثم مزقت أشلاؤه؛ وهكذا كانت أساليب الاسبان وحاكم التحقيق أزاء العرب المنتصرين

واختفى محمد بن أمية مدى حين فى منزل قريبه «ابن عبو» وكان من انجاد الزعماء أيضاً، وطارده الاسبان دون أن يظفروا به. على ان هذه الهزائم الأولى لم تفل عزم الموريسكيين فقد احتشدوا فى شرق البشرات فى جموع عظيمة وأخذوا يهددون المريه، فسار اليهم المركيز «لوس فيليس» على رأس جيش آخر، ووقعت بين الفريقين عدة معارك شديدة قتل فيها كثير من الفريقين، ومزق الموريسكيون، وفتك الاسبان كعادتهم بالأسرى وقتلوا النساء والأطفال قتلا ذريعاً

وقعت فى نفس الوقت فى غرناطة مذبحة مروعة أخرى فقد كان فى سجنها العام نحو مائة وخمسين من أعيان الموريسكيين اعتقلوا رهينة وكفالة بالطاعة فأذاع الأسبان أن الموريسكيين سيهاجمون غرناطة لانقاذ السجناء بمؤازرة مواطنيهم فى البيازين؛ وعلى ذلك صدر الأمر باعدام السجناء فانقض عليهم الجند وذبحوهم فى مناظر مروعة من السفك الأثيم

وكان لهذا الحادث الأخير أثره فى اذكاء نار الثورة، وكان نذيراً جديدا للموريسكيين بأن الموت فى ساحة الحرب خير مصير يلقون، فسرى إليهم لهب الثورة بأشد من قبل وطافت بهم صيحة الانتقام فانقضوا على الحاميات الأسبانية المبعثرة فى أنحاء البشرات ومزقوها تمزيقاً وهزموا قوة اسبانية تصدرت لقتالهم واحتشدت جموعهم مرة أخرى تملأ الهضاب والسهل؛ وعاد محمود بن أمية ثانية إلى تبوأ عرشه الخطر، والتف حوله الموريسكيون أضعاف ماكانوا، وبعث أخاه عبد الله إلى القسطنطينية يطلب العون من سلطانها، ولكن سلاطين قسطنطينية لم يلبوا ضراعة الموريسكيين برغم